معايشات ومشاهدات من "حرب الخرطوم"..!

2023-2024

بقلم :شمس الدين ضو البيت

غلاف فني من تصميم الفنان الجرافيكي عبادة جمعة جابر

يناير2025

SUDAN TRANSPARENCY
AND POLICY TRACKER

التاريخ: الصباح الباكر من يوم الثلاثاء، 12 ديسمبر 2023

المكان: كوبري البوليس بودمدني، حيث كانت تقف 3 حافلات ركاب سعة 26 راكب، بدا من هيئتها ومكان وقوفها أنها في الأصل مركبات للمواصلات الداخلية، لا بد أن من يقودها الآن هم سائقون مغامرون يخوضون بها مخاطرة السفر بين المدن في زمن الحرب، طبعاً بغرض تحقيق عائد مالي أعلى. عدد قليل من الناس حول إحدى الحافلات الثلاث، وآخرون داخلها، بينما وقفت الحافلات الأخرى هناك، تنتظر دورها في الشحن، الذي ربما، لقلة المسافرين، لن يأتي في ذلك اليوم. (كمسنجي)، يصيح بصوت جهور: (الخرطوم السلمة، محطة البقالة، كان ما وصلناك هناك نرجع ليك قروشك.. السلمة السلمة، البقالة السلمة، ولا قروشك ترجع!). كان الكمسنجي بالنبرة العالية التي أجتهد أن تكون واثقة، ونصف الابتسامة على الوجه، يحاول أن يطمئن الراغبين في السفر، ويدفع المترددين الذين وصلوا إلى الموقف، كي يستقلوا الحافلة.

كان واضحاً أن الخوف والهواجس هي سيدة الموقف، ما الذي يمكن أن يحدث في الطريق؟ أو حتى بعد الوصول إلى الخرطوم، هل بالإمكان أصلا الوصول إلى الخرطوم، أم أن الأمر سيكون مجرد مخاطرة ستنتهي بالاعتقال أو الإرجاع بعد النهب و"الشفشفة"[1].. على الرغم من أن مدينة وادمدني كانت حتى ذلك الحين منطقة آمنة، إلا أن أخبار الحرب وقصص النهب والاعتداءات التي كانت تأتي من الخرطوم ومناطق العمليات الأخرى في شمال الجزيرة، يغذيها تاريخ طويل من الحكايات والتقارير عن انتهاكات "الجنجويد" في دارفور، كانت كفيلة ببث الرعب في قلوب الناس في كل مكان. ظهر ذلك في تردد كثير من المسافرين في الركوب حتى بعد وصولهم مكان الحافلات: المتاع الذي لا يتعدى أكياس بلاستيك بها غيار واحد، الهواتف الصغيرة الرخيصة التي يحملونها بدلاُ عن الذكية، الوجوم، الأسئلة الهامسة لمسافرين آخرين عن سلامة الطريق، وعن المعاملة في الارتكازات، ساعات الرحلة، نوع التفتيش ..الخ الخ.

ألقيتُ نظرة أخرى على الهيئة العامة للحافلة، خاصة الإطارات، وبحثت عن السائق الذي لم يكن موجوداُ، وإنما مساعده، في محاولة لتقييم على الأقل الفرص الفنية لوصول المركبة إلى الخرطوم. كنت قد لاحظت عند سلوكي طريق الخرطوم مدني آخر مرة، وقت خروجنا من الخرطوم إلى الجزيرة في الأسبوع الخامس لاندلاع حرب الخرطوم – لاحظت اختفاء معظم الخدمات القليلة أصلاً على الطريق الشرقي بين المدينتين، وهو الطريق الذي سنسلكه إلى الخرطوم، بسبب التواجد الكثيف والاشتباكات على الطريق الغربي وقتها، ابتداءً من الكاملين وصاعداً.

كذلك كانت لدي عادة قديمة، عندما تضطرني الظروف لاستقلال حافلات سفر من خارج مواقفها الرسمية ومكاتب التذاكر، أن أحاول أخذ انطباع عام عن السائق، من زاوية السلوك المسئول، كنت أحيانا أقوم بتغيير المركبة بناءً على هذا الانطباع. الغريب في الأمر أن الحالات التي نشأ لدي فيها انطباع غير مطمئن، انتهت جميعها، على ما أذكر، بحادث مروري ما أثناء الرحلة. أما سائقنا هذه المرة فلم يظهر لحظات "الشحن"، كما لم يكن هناك خيار حافلة أخرى، لقلة المسافرين، لكن تبين لي في ما بعد أن السائقين في هذه الحرب من شاكلة أخرى تختلف عما قبل، أو إذا كانوا سائقي حافلات سفرية أصلاً، فقد تطلبت منهم الحرب طبائع جديدة: إنهم مغامرون باحثوسسسن عن كسب مالي مضاعف وسريع، كما سبق وأشرتُ، هذا من جانب، ولكنهم ومساعديهم، من جانب آخر، صاروا ضحايا حقيقيين لهذه الحرب، بتعرضهم لعنفها وانتهاكاتها:

---

[1] كلمة راجت أولاً في مناطق سيطرة قوات الدعم السريع، وتعني تجريد الجنود للمواطنين من نقودهم وهواتفهم ومقتنياتهم الثمينة.

بالابتزاز والإذلال والحجز والضرب، بصورة راتبة، لأنهم من يواجهون، نيابة عن المسافرين معهم، لؤم وعنف المسلحين في الارتكازات ونقاط التفتيش ومحطات العبور، وهم المتهمون ومن يتحملون تبعات "مخالفات" من معهم. لذلك فأول ما يشد الانتباه في هذه الفئة العاملة منهم في أتون الحرب، سواء بين المدن والولايات أو في داخل الخرطوم لاحقاً، حالة الصمت الطويل التي تلفهم، والوجوه المتعبة الخالية من أي تعابير، والأزياء اللامبالية، لتعكس حجم الصبر وطول البال والقدرة على التحمل المطلوبة لإكمال أية رحلة إلى نهايتها، والعودة منها أحياء!..

توكلتُ وصعدتُ إلى المركبة، وتشجع أخرون وصعدوا، وتحركت الحافلة حوالي الثامنة صباحا صوب كوبري حنتوب ثم بالطريق الشرقي إلى الخرطوم. غالب من بالحافلة كن نساءً تجاوزن منتصف العمر، يبدو أنهن مواطنات من مناطق مايو وجنوب الحزام في الخرطوم؛ امرأة شابة واحدة معها طفلين، وأخرى تحمل في يدها ظرف كبير لصورة أشعة. جاء عدد قليل من المودعين مع النساء، كانت لحظات الوداع المشوبة بشئ من (المحنَة السودانية) صامتة وقصيرة، وضعت النساء كبيرات السن بعدها على أوجههن ذلك الملمح الحازم الصارم للجدات، كمن تقول (في شنو يا ولد؟)، في الغالب استعداداً لما توقعن أنهن سيقابلنه من استجوابات ومضايقات من طرفي الحرب في الطريق. لم يكن بين الرجال إلا ثلاثة من الشباب، وساد بين جميعهم الصمت والترقب الحذر.

ارتكازات مناطق الجيش

بدأت الارتكازات بعد كوبري حنتوب بقليل، وتواصلت بفاصل لا يزيد عن عشر كيلومترات عن بعضها البعض. عادة ما كان الارتكاز مكتظاً بالعديد من الأشخاص بعضهم بملابس رسمية وأخرون بملابس مدنية، يقفون في مجموعات تفصل بينها عدة أمتار: رجال شرطة، مندوبو المحلية، جهاز الأمن، القوات المسلحة ..الخ، بعضهم مسلح بالكلاشات، وآخرين بالعصي والخراطيش. كان يجب على الحافلة أن تتوقف في كل واحدة منها، ينزل المساعد الشاب بوجه صامت ليذهب إلى (عريشة) على مبعدة من مكان الوقوف، يدخل إليها ويظل بداخلها لبعض الوقت، وبرغم أن مدخلها ليس له باب، إلا إنه ليس بالإمكان من الخارج رؤية من بداخلها أو ما يحدث فيها. وعندما يخرج المساعد منها يكون عادة أكثر نشاطاً، كمن تخطى للتو عقبة كؤود. لتتحرك العربة ببطء نحو المجموعة الثانية من الواقفين في الارتكاز، بعضهم يومئ بالمواصلة، آخرون قد يطلبون من العربة أن "تجنِب"، أي أن تخرج من الشارع وتنتظر. يتولى السائق الأمور هنا، فيخرج ورقة أو رخصة القيادة من المظلة فوقه، ويعطيها للشرطي أو الفرد الملتصق بالمركبة، يضع هذا شيئاً ما في جيبه، وينظر للورقة ثم يعيدها للسائق ويؤشر له بالتحرك..!

مثَل كل واحد من الارتكازات نموذجا في الفوضى وغياب القانون. فبرغم أن من يتواجدون في هذه الارتكازات على كثرتهم كان يبدو عليهم من طريقة تعاملهم أنهم تابعون لإحدى السلطات المحلية أو الإتحادية، إلا أنه لم تكن هناك أي ملامح لضوابط معينة تحكم سلوكهم. كان المشترك بين أكثرهم، أنهم يحاولون بطرق فظة، مستخدمين سلطاتهم في الإيقاف وحالة الخوف والضرورة بسبب الحرب، لابتزاز أكبر قدر من الأموال من السيارات العابرة. فتفاوتت فترات الوقوف في هذه الارتكازات ما بين عشر إلى عشرين دقيقة في كل ارتكاز، بحسب مطالبات عناصره وسير المفاوضات، أو في الحقيقة توسلات، المساعد أو السائق لإنقاص المبلغ المالي المطلوب. في أحد الارتكازات قبل الهلالية تم إنزال الشبان الثلاثة بعد سؤالهم عن قبائلهم، وكانوا من قبائل ما يُعرف بـ(ذات الجذور العربية) إما من كردفان أو حول الخرطوم.

وذلك حتى وصلنا الارتكاز رقم 12: الهلالية:

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً عندما بلغنا الهلالية. في الأوقات العادية ربما تكفي الساعات الخمس التي قضيناها للوصول إلي الهلالية، للوصول الي الخرطوم والعودة إلى مدني مرة أخرى. مع ذلك فقد انتظرنا الأسوأ في الهلالية ذاتها.

كان الارتكاز في الهلالية أكثر اكتظاظاً، عدد أكبر من الأشخاص بملابس مدنية يحملون أسلحة نارية شخصية أو ذلك النوع من "الخراطيش" الصلبة، الذي تستخدمه عناصر جهاز الأمن لفض المظاهرات والوقفات الاحتجاجية. كان أكبر أيضاً عدد حافلات المتجهة إلى الخرطوم المتوقفة في الارتكاز -التي غالباً ما تكون دخلت من الحصاحيصا وغيرها من الأماكن غرب النيل الأزرق، عبر كبري رفاعة، إلى الطريق الشرقي- وكثير من المسافرين الذين نزلوا منها، يحاولون معرفة السبب في التأخير أو متابعة مجهودات السائقين ومساعديهم مع عناصر الارتكاز.. اتضح أن السبب هو مطالبة عناصر الارتكاز للحافلات بدفع مبالغ مالية كبيرة، لا يتبقى بعدها لمغامرة السفر عائد يذكر، للسماح لها بمواصلة الرحلة.

بدا لي أن مشاهد الجمع المبعثر والمختلط من مسافرين ونظاميين، المنتشر على مدى ثلاث ساعات من الانتظار، في طريق الأسفلت وحوله في نهار قائظ الحر، برغم ديسمبر، والوجوه التي سيطرت عليها من جانب عناصر الارتكاز: تعابير اللؤم والقسوة، واللامبالاة وهم يرفعون "خراطيشهم" في وجوه من يترجونهم من المساعدين بقبول مبالغ أقل، بينما يردهم أولئك، أمام المسافرين (يا زول أمشي من قدامي .. ما عندي ليك أي حاجة)، ومن جانب المسافرين علامات الإرهاق من الجوع والعطش وحرارة الطقس، والغضب المكتوم مصحوباً بمشاعر العجز وقلة الحيلة، والمخاوف مما يمكن أن يحدث، بما في ذلك إرجاع الحافلة من حيث أتت- بدا لي أن تلك المشاهد لخصت الحالة التي وصلت إليها دولة 56' وسليلتها الغولة دولة 89': سيطرة القوة الباطشة على المشهد، فساد واستبداد بلا سقوف "وعلى عينك يا تاجر"، فوضى ضاربة الأطناب، سلوكيات لموظفين حكوميين لا تقيدها ضوابط أو لوائح أو قانون، غياب كامل لأي إطار مؤسسي.. وتحت أقدام هذه الفيلة الجامحة ضاعت حقوق المواطنة وأهدرت وانتُهكت جملة وتفصيلا..

هنا قد يقول البعض إن مصطلح 56' هو تعبير "جنجويدي"، يتسلق عليه الدعم السريع للكسب السياسي، ولا يجوز قبوله أو استخدامه، وأن الصحيح أن يستخدم المجتمع المدني مصطلحاته الخاصة به، بدلاً عن شرعنة مصطلحات المجموعات المسلحة، هذا إن لم يُصنف من يستخدمه كـ"جنجويدي متخفي" ابتداءً. في الحقيقة لا يمكن فصل مشاهد ذلك الارتكاز عما انتهت إليه أوضاع دولة 56' التي تحورت متفاقمة إلى دولة 89'. كما أن انتقاد المجتمع المدني لسلف دولة 89' لم يبدأ مع الدعم السريع، وإنما سبقه بعقود، وصار شائعاً في تعابير مثل "العودة إلى منصة التأسيس"، و"إعادة هيكلة مؤسسات الدولة السودانية" ..إلخ من مصطلحات تعبر عن الخلل التأسيسي في دولة 56'. ليس المجتمع المدني هو من يستلف لغة الحركات المسلحة، وإنما العكس هو الصحيح ودونك تعبير "السودان الجديد"، الذي كان أصلاً اسماً لمجلة ثم لصحيفة يومية تأسست في الخرطوم منذ منتصف أربعينات القرن الماضي، قبل أن يرتبط بالحركة الشعبية لتحرير السودان في الثمانينات.

استمر التوقف في ارتكاز الهلالية حتى ما بعد الثالثة والنصف بعد الظهر. فاقم من سوء الوضع أن عناصر الارتكاز، إمعاناً في الابتزاز، طردوا جميع المركبات من ظلال قليلة لأشجار في المكان، وقفت تحتها

احتماءً من أشعة الشمس اللاهبة، إلى فضاء أجرد من أي ظل. مرة أخرى لم تفلح توسلات الركاب بالمرضى والأطفال، في زحزحة العاملين في الارتكاز عن قرارهم.

أخيراً، وبعد أن عاد مساعد السائق الشاب للمرة العاشرة بوجه تكاد تطفر منه الدموع، يائسا من محاولة إقناع ذلك الرجل ذو الخرطوش الصلب بقبول مبلغ مالي أقل، خاطبنا السائق بأنه لا سبيل إلا بترك طريق الأسفلت والاتجاه شمالاً عبر أرض البطانة، ولقننا أسماء لبلدات يصعب نطق اسمائها، علينا أن نقول إننا متجهون إليها في حالة اعترضتنا أو قابلتنا وحدات تفتيش. وبالفعل اتجه السائق شمالاً وسط قنوات وأراض زراعية أول الأمر، ثم طرق وعرة ترابية لما يقرب من الساعة، ثم غرباً إلى منطقة جرداء إلا من الحفر والخيران، حتى التقى طريق الأسفلت مرة أخرى. طوال الوقت منذ مغادرة ارتكاز الهلالية ساد الصمت داخل الحافلة توجساً مما يمكن أن يحدث إذا ظهرت فجأة دورية أمنية. وما كدنا نستعيد أنفاسنا من خض الطريق الوعر بالوصول إلى شارع الأسفلت، حتى توقف السائق للحظات ليقول إن الارتكاز القادم سيكون أول ارتكاز للدعم السريع، وعلى الجميع أن يجهزوا أوراقهم الثبوتية، وأن يعرف كل راكب ما سيقول إذا سئل عن مهنته ومكان سكنه في الخرطوم، فعاد الصمت والرهبة وارتفعت مرة أخرى وتيرة التوجس والترقب.

ارتكازات الدعم السريع

صعد الحافلة شاب ببندقية طويلة، يبدو عليه أنه في أوائل العشرينات، وألقى، بلهجة أهلنا الأبالة من غرب السودان (السلام عليكم) بشئ من الترحاب، ثم سأل: (جايين من وين؟) أجاب عدد من الركاب بصوت واحد، وقد شجعتهم نبرته المرحبة: من مدني، (أها، وماشين وين؟).. الخرطوم ..(ومالكم متأخرين كدي؟) كان الوقت عندها قد بلغ مغيب الشمس. أجاب البعض بهمهمات (الارتكازات .. ارتكازات الجيش .. ما خلونا .. أخرونا في الهلالية ..!). النساء هن من كن يتصدين عادة للإجابة على الأسئلة الجماعية..! سأل الشاب الذي لم يكن يرتدي الكدمول، ولا زيا عسكرياً، وهو يبتسم هذه المرة: (فيكم زول شايل سلاح ولا ممنوعات؟)، رد بعض الركاب شبه ابتسامته بابتسامات أعرض، أقرب إلى الضحكات، وهم يجيبون بالنفي..!

في هذه الأثناء كان شخص آخر يطوف حول العربة يتفرس من النوافذ في وجوه الركاب وما بداخل الحافلة. طلب مستندات ثلاثة رجال، كان ما يجمع بينهم أعمارهم المتوسطة وملامحهم ذات الجذور الافريقية.. فحص المستندات وسألهم بعض الأسئلة، ثم سمحوا للحافلة بمواصلة السير. بعد ذلك بقليل سأل السائق الركاب إن كانوا يفضلون مواصلة السفر إلى الخرطوم، مع احتمال منع الحافلة من دخولها ليلاً، أم المبيت في أم ضوا بان، ودخول الخرطوم صباحاً. كان الموقف الغالب المبيت في ام ضواً بان. واضح أن الركاب، برغم أنهم تنفسوا الصعداء، لأن روح أول لقاء لهم مع الدعم السريع جاءت على عكس ما اعتمل في نفوسهم وما كانوا يتوقعون، إلا أنه لم تتبق لديهم طاقة للمغامرة ومواجهة طوارئ جديدة ذلك اليوم.

في ام ضواً بان ذاتها لم تكن آثار الحرب ظاهرة في تلك الأمسية ذلك الوقت. الجديد كان واحداً من النشاطات الاقتصادية، التي ظهرت مع الحرب، وانتشرت في كل مكان: صبية وشباب بأسرة حديدية، غالباً جزء من أثاث منازلهم، يعرضونها للإيجار ومعها مخدات وبطاطين، لمبيت المسافرين مثلنا. فمعظم الرحلات التي كانت لا تستغرق سوى ساعات أصبحت تستغرق بعد اندلاع الحرب أياماً عديدة.

تحركنا في الصباح الباكر من أم ضواً بان، لتبدأ رحلة طويلة أخرى بين ارتكازات الدعم السريع. لم يكن يفصل الآن بين كل ارتكاز والآخر أكثر من خمسمائة متر، بحيث كان تفتيش كل عربة يتم على مرأى من الارتكاز التالي والذي يليه، ومع ذلك كان يجب الوقوف والخضوع للتفتيش ذاته في كل ارتكاز. ما هذا؟ هل قلتً كل عربة؟ في الحقيقة لم تكن هناك أي سيارات أخرى غير العربة التي كنا نستقلها. كانت الطرق خالية من البشر ومن الحيوانات ومن أي نشاط عادي آخر.

مع تقدمنا في الطريق نحو الخرطوم بدأت تظهر آثار المعارك الحربية التي دارت مع متحركات للجيش: مجنزرات مدمرة وناقلات جنود وعربات قتالية محروقة أو مقلوبة على جانبي الطريق، حتى قريبا من مداخل شرق النيل. في الأماكن التي كانت بها مباني، خاصة إذا كانت متاجر، كانت تظهر من داخل أبوابها المفتوحة ثاتشرات الدعم السريع القتالية، بأطقمها عليها، ومدافعها الدوشكا باتجاه الشارع. كل ذلك وسط سلسلة لا تنقطع من ارتكازات الدعم السريع، يصعدون إلى العربة، يسألون نفس الأسئلة، وللمفارقة العجيبة، يطلبون مستندات نفس الرجال الثلاثة .. وذلك إلى أن دخلت الحافلة شرق النيل، وتوقفت أمام محطة وقود كبيرة، تبين أنها الارتكاز الرئيسي للدخول إلى الخرطوم.

في هذا الارتكاز أنزل جميع الركاب بعفشهم، أخذت النساء بحقائبهن إلى مكان داخلي، برفقة إمراة ترتدي زي الدعم السريع. وجرى استجواب الرجال في الخارج حول مهنهم وأسباب مجيئهم إلى الخرطوم، وأماكن سكنهم فيها، وتم تفتيش حقائبهم والتدقيق في مستنداتهم وبطاقاتهم الشخصية. الأفراد العاملون في هذا الارتكاز يذكرونك فورا بأفراد وممارسات جهاز أمن نظام المؤتمر الوطني: اللؤم، تلك السخرية الجافة السخيفة، التلذذ بقهر الناس ... عندما جاء دوري قدمت رخصة القيادة كمستند شخصي، فاتخذ فرد التفتيش منها موضوعاً و(فرصة) لإعطاء عدة دروس متحذلقة في أنها ليست مستند، وأن قيمتها لا تتجاوز مقعد القيادة في السيارة، وهذا وذاك وتلك، وأن المستند الوحيد المقبول لديه هو الرقم الوطني (بالمناسبة رخصة القيادة مستند معتمد في كل بلدان أوروبا، مثلا)، المهم لإنهاء ذلك (الكلام الكتير) أخرجت الرقم الوطني من الحقيبة (مستخرج 2012، قبل الدعم السريع).. نظر فرد التفتيش فيه وقلَبه، وأطال النظر فيه مرة أخرى .. ثم أخيراً طلب مني أن أثبت أن المهنة المذكورة فيه (مهندس زراعي)، هي فعلاً مهنتي..!

مداخل الخرطوم

كانت المشاعر مختلطة والحافلة تسير بنا، لأول مرة بعد عدة أشهر، في شوارع هي جزء من خرطوم تركناها على عجل، بسبب معارك عسكرية ضارية كانت تدور فيها، وتجنباً لفظائع وقصص مرعبة من قوة عسكرية غريبة عنها اجتاحتها.. هذه القوة العسكرية تسيطر عليها الآن. إحساس أولي بالغربة، أعتقد أنه يغمر في البداية كل العائدين إليها من مشاهد التواجد العسكري في كل زاوية ومنحنى. بينما تتفرس الأنظار من نوافذ المركبة كل شاردة وواردة في الشوارع والأحياء. كل يريد أن يعرف حجم ما حدث ..ويقارنه بما سمع، ويقيم لنفسه ولأسرته حجم المخاطر وفرص النجاة، وإمكانات التلاؤم والبقاء..

بعد مغادرة الارتكاز وجدنا أنفسنا في الشارع الرئيسي للحاج يوسف.. باستثناء أعداد مقدرة من جنود الدعم السريع متحركين بأسلحتهم، أو متحلقين حول سيارة بينما ميكانيكي يعمل عليها، أو جالسين على كراسي بقرب ست شاي أو بائعة طعام، إضافة لعدد قليل منهم في منتصف الشارع، وسط قطع أثاث محطمة أو ربما عمود كهرباء مستعرض كحاجز، أو حتى (ركشة) محترقة، يحرسون منها أحد ارتكازاتهم، التي صار لا يفصل بينها الآن أكثر من 250 متراً – باستثناء ذلك، كانت الحياة تبدو شبه طبيعية في الحاج يوسف.

برغم الوقت الباكر من اليوم كان هناك مواطنين متحركين، ودكاكين مفتوحة، بل وعدد متتابع من الجزارات وطبليات وأكشاك الخضر.. ملامح من حياة عادية نوع ما..

أو لربما كان ذلك إحساس صادر فقط مقارنة بما كان المرء يتوقعه من دمار..!

وصلنا كبري المنشية. على اليمين كان مستشفى شرق النيل. كانت الأخبار نقلت تعرضه لقصف، وفعلا كان جزء من الواجهة المطلة على الكبرى مدمراً. الكبرى ذاته، كان يعمل بمسار واحد، وحواجز في المسار القادم من الخرطوم. كانت حركة السيارات قليلة، في الغالب الأعم إما عربات قتالية بدوشكات، أو عربات مدنيين يقودها أفراد من الدعم السريع، عربتين أو ثلاثة مسلحة تقف في مداخل الكبرى. عبرنا كوبري المنشية بلا مشاكل، سوى الهواجس والترقب.

نحن الآن في جانب الخرطوم من كوبري المنشية، ثم مدخل شارع الستين الشمالي. مرة أخرى، باستثناء خلو الشارع الرئيسي والشوارع الجانبية والمتاجر والمنازل من أي مارة أو مواطنين (كان ذلك شيئاً متوقعاً، من صور الأحياء الخالية في الفيديوهات الكثيرة على وسائل التواصل الاجتماعي، والحديث المتكرر عن الخرطوم كمدينة أشباح)- باستثناء غياب المواطنين والارتكازات المتواصلة، فلا أثر آخر ظاهر يفجأ العين من آثار الحرب: العمارات الطويلة والمباني والفلل السكنية قائمة في مكانها، غير مدمرة كم اعتدنا على مشهدها في الفضائيات لحروب في المنطقة، الجدران بطلاءاتها وألوانها، لا أثر عليها من دانات المدافع أو زخات ذخائر الرشاشات. الشارع ذاته كان نظيفاً إلى حد ما، وإن خلا أيضاً من السيارات. حتى ذلك الوقت كانت حافلتنا هي الوحيدة في الشارع.

كانت المعاملة في الارتكازات أيضاً ملفتة للنظر. عادة ما يصعد شاب .. يحي الركاب باللهجة المميزة لعرب دارفور، يسأل من أين قادمون .. (يتحمدل السلامة).. ينظر هنا وهناك في وجوه المسافرين وفي داخل العربة، ثم ينزل منها. في الاثناء يكون هناك فرد آخر، يتفحص وجوه الركاب من النوافذ. يطلب مستندات من بعضهم، ويطلب من البعض النزول. للغرابة كان من يتم إنزالهم كل مرة، هم نفس الأشخاص الثلاثة، بسحناتهم الإفريقية، الذين أنزلوا في أول ارتكاز للدعم السريع.. بعد نزولهم يأخذهم من أنزلهم إلى ما يبدو من الخارج أنه مكتب الارتكاز، مُقام داخل متجر أو جراج سيارات مطل على الشارع في أحد المنازل، لكنك لا تشاهد من الخارج ما يحدث داخله ..

بدا لي حينها، من تكرار المشاهد والسلوكيات، أن هناك اتساق في طريقة تعامل ارتكازات الدعم السريع. في واحد من ارتكازات شارع الستين، صاح فرد الارتكاز بعد أن نظر من الخارج ودون أن يصعد للعربة: (الشباب ينزلو لينا تحت!)، وكان المقصودين بالشباب اشخاص حوالي الاربعينات بعد أن أنزلت ارتكازات الجيش الشباب الحقيقيين. نزلتُ مع النازلين.. ولكن من يبدو أنه حكمدار الارتكاز سألني فوراً (إنت نازل لبيه يا عمنا؟)، أجبت (مش قلتو الشباب ينزلو) .. بصورة عامة كان هناك قدر من المعاملة الخاصة لكبار السن والنساء، وفي كل الأحوال كان التعامل في ارتكازات الدعم السريع التي مررنا عليها وبرغم كثرتها، أفضل بكثير عما كان عليه الحال في ارتكازات مناطق سيطرة الجيش..! ..

واصلت الحافلة سيرها المتقطع بين الارتكازات في شارع الستين، ثم شارع افريقيا، ثم شوارع السوق المركزي، لنجد أنفسنا في محطة (الصهريج)، حيث نزل بعض الركاب، ووداعات سريعة لعلاقات قصيرة نشأت بعد أم ضوأ بان، حين انطلقت الألسن قليلاً بالكلام.. في سوق مايو، محطتي الأخيرة، من حيث أخذني إلى منزله، صديق ساعدني كثيراً في الرحلة والإقامة، بدت الحياة على نحو ما عادية، كما في الحاج

يوسف.. السوق أكثر اكتظاظاً بالناس. البضائع والمواد الغذائية والخضروات، بل وبعض الفواكه متوفرة في السوق وحركة مقدرة لحافلات مواصلات داخلية، طبعا كل ذلك مع حالة الفقر المدقع والإهمال الخدمي الواضح، الذي يلف تلك الأحياء جنوب الخرطوم.

صباح اليوم التالي كان يوما خاصاً مشحوناً بالمشاعر، لأنني سأعود فيه إلى منزلي بعد حوالي خمسة أشهر، منذ أن غادرته -رحمة بإبني الطفل- بعد اشتداد القصف والرصاص المتطاير فوق الرؤوس، ووصول المعارك إلى حيّنا. في تلك الشهور، لم تجر مياه كثيرة تحت الجسور، كما يقولون، بل موجات من حمم النيران الزاحفة على الأحياء، مع العربات القتالية والمدفعيات ذات الأصوات المرعبة العجيبة، وفي وسطها وأثنائها -لا تحفل بها- جحافل الفقراء أكثرهم من النساء تجوب الشوارع جيئة وذهاباً، تحمل من أحياء الخرطوم الوسطى إلى أحيائها الجنوبية المدقعة، كل ما يمكن حمله من أشياء. كنتُ شهدت كل هذا في الأسابيع الخمسة الأولى من الحرب، ولا بد أن كل ذلك أو شيء كثير منه قد وصل إلى منزلنا الذي يتوسط حيه ساحات المعركة. أضف إلى ذلك أن قوات الدعم السريع كانت تتخذ من المنزل مسكنا.

عدة اعتبارات كانت هي التي دفعتني للعودة إلى الخرطوم. أولها مكتبتي الخاصة، ومعها عشرات دفاتر المذكرات والاقتباسات من القراءات ومصادرها. وربما لا يعرف كثيرون ارتباط الناس بمكتباتهم، إلا من ذاق منهم، مثلي، مصادرة جهاز أمن المؤتمر الوطني لمكتبتي عام 1997. ثانيها، أنني كنت في قرارة نفسي أشعر، أن بعضاً منا، نحن الذين تصدينا للعمل العام بأشكال مختلفة، عليهم أن يبقوا مع شعبهم بالداخل يقاسمونهم آلام الحرب وقساوتها. بالتأكيد هناك كثيرون لا يمكنهم البقاء بالداخل لخطورة طرفي الحرب على سلامتهم، آخرون وجودهم أفيد بالخارج، لقضية البلد. وكان يحدوني أمل أن نتمكن نحن الذين بقينا بالداخل من المشتغلين بالشأن العام، من تكوين منصة ما، ربما نتمكن بها من عكس أوضاع الملايين من البؤساء، العالقين في اتون الحرب بالخرطوم الكبيرة. ثالث الاعتبارات، يتصل بعشرات الألوف من كتب مشروع الفكر الديمقراطي، ضمن سلسلة "القراءة من أجل التغيير"، كانت موجودة في مخزن قريباً من وسط الخرطوم، كنت أريد أن استكشف إمكانية إخراجها من تلك المنطقة المحظورة، والإفادة منها بطريقة ما. في ما بعد استقر رأي على إتاحتها في مكتبات بالمنازل للشباب الذين طحنتهم الفاقة بسبب الحرب، وأن أبدأ ذلك المشروع من منزلي ..

العودة إلى المنزل

وصلت مع الصديق، إلى ارتكاز الدعم السريع المجاور للمنزل، تعتريني حالة من الترقب عما سيكون عليه رد فعلهم لطلب دخول المنزل، ثم إن وافقوا، كيف سأجد حال المنزل، الذي عشت فيه أربعة عشر عاما مع أسرتي، كيف سيكون حال المكتبة، وغرفتي الخاصة، وغرف البنات، وأشياؤنا.. كانت إحدى بناتي (لا بُد في حالة من حسن الظن بالحرب أو عدم معرفة) قد بعثت من خارج السودان قائمة بالأشياء التي تريد

عمال نهب في الخرطوم عين

أخذها من غرفتها وإرسالها لها.. كانت تلك أول مقابلات شخصية لي وأحاديث مباشرة مع أشخاص من الدعم السريع بعد الحرب. وجدنا فرداً بملابس عسكرية يحمل بندقية طويلة، جالساً كحارس في منطقة الارتكاز، بينما كان آخرون متحركين حول المكان، لفت نظري في الارتكاز كرسيان بمقعد اسفنجي مزركش، لا بد أنهما من منزلنا، جزء من طقم المائدة. كان أحد الكرسيين عبارة عن الأرجل الأربعة والمقعد المزركش الباهت، بدون الجزء الخلفي. سألنا الرجل عن قائد الارتكاز، نهض بعد أن تأكد من مطلبنا بعدة أسئلة، وأخذنا إليه، ثم وقف يراقب. كان القائد رجلاً في أوائل الاربعينات، يرتدي شورت وفنلة بولو. سلم علينا بهدوء، ووقف ينتظر. قلتُ له إنني صاحب ذلك البيت وأشرت لمكانه، وأريد أخذ بعض الأشياء منه، سأل وهو ينظر في الاتجاه، (ياتو بيت؟)، فأشرت للبيت مرة أخرى؛ ففاجأني: (إنت سيد البيت الفيهو المكتبة؟). أراحني سؤاله بعض الشئ، لأنه عنى أن المكتبة معروفة لقائد الارتكاز، ولذلك ربما تكون موجودة..

كان الرجل مهذبا في طريقة تعامله، حتى أنه قال، إنه لا يحتاج لرؤية بطاقاتنا، فهو يستطيع أن يميز بين الناس، وطلب من الجندي الذي أوصلنا إليه، والذي اتضح أنه أحد ساكني المنزل، أن يرافقنا إلى البيت.

الباب الخارجي كان مربوطاً بحبل من الخارج، واضح أنه فُتح بطريقة عنيفة، وأصبح طرفاه متباعدان. كان ممكنا من الخارج رؤية السراير والطاولات والمراتب قطنية واسفنجية، بعضها على الأرض .. تقريبا نصف الأثاث الداخلي للمنزل موجوداً في الحوش الخارجي: كراسي وأواني من المطبخ.. ناموسيات وأحذية.. ترابيز بأحجام مختلفة..

دخلت مباشرة إلى الصالون، حيث المكتبة، يتبعنا فرد الدعم ببندقيته. الحمد لله، فقد كانت الكتب متراصة على مكانها في خزانات الأرفف الخشبية الست. تمت زحزحة بعض الخزانات وإلصاقها ببعضها، فيما يبدو لإفساح مساحة لغرض ما في الصالون، لكن لم يوثر ذلك على الكتب. بصورة عامة لم تتأثر المكتبة .. فقط غطاها الغبار..

دخلت غرفتي الملاصقة للصالون، وكنت هيأتها أيضاً كمكان للقراءة بكرسي مريح أمامه (تربيزة) متوسطة، وبالغرفة خزانة أرفف صغيرة لمؤلفاتي والترجمات والكتب التي قمت بتحريرها أو شاركت في إعدادها، وخزانة أدراج للأوراق والملفات والتقارير ..إلخ، ومن فوقها كتب كثيرة من التي أعمل عليها، ذلك كان حال الغرفة كما تركتها قبل حوالي خمسة أشهر .. أما الآن، فقد كانت الغرفة خالية، إلا من السرير الكبير ودولاب الملابس .. دولاب الملابس نفسه كان خالياً تماماً .. أدراج الخزانة كانت خالية مبعثرة على الأرض، التذكارات والأناتيك فوق خزانة الأرفف غير موجودة، إلا صورة في إطار لأحد أبنيّ. لكن الكتب في خزانة الأرفف الصغيرة كانت على حالتها..

في الصالة الداخلية تكومت في كل مكان وسط ما بقي من أثاث ملابس وأوراق وملايات وأحذية. بعض الأشياء الموجودة على الأرض وفي المنزل كانت غريبة على نظري، أي أنها ليست من ممتلكاتنا.. صعدت إلى الطابق الأعلى، صعد معي فرد الدعم ببندقيته، ظل الرجل يتبعني إلى كل مكان ذهبت إليه في المنزل، ويقف لصقي، بندقيته ترتفع خلف قامته .. إحدى غرف البنتين كانت خالية، وهي ابنتي التي كانت قد أرسلت قائمة بأشياء تريدها من الغرفة .. غرفة البنت الأخرى أشياؤها مكومة على الأرض، حتى أن الباب يفتح بصعوبة نحو الداخل. الغرفة الثالثة لاثنتين من قريباتنا تقيمان معنا، كانت أشياؤها مكومة على الأرض أيضاً.

جمعت ما وجدت من الأوراق والدفاتر والكتب التي كنت أريد أن تكون معي في حالة لم أستطع العودة إلى المنزل، واغتنمت فرصة قصيرة خرج فيها العسكري للتدخين لإخراج مبلغ من المال كنت أخفيته في المنزل، وخرجنا نسارع الزمن للعودة، لأن الطريق يصبح أكثر خطورة بدءً من الثالثة بعد الظهر. مررنا بحكمدار الارتكاز، وجدنا شخصاً آخر معه، يبدو أنه مسئول استخبارات الدعم السريع في المنطقة، فاجأني باقتراحه، أن أعود لبيتي، وحدي لفترة أولى، ويمكن أن تنضم لي أسرتي بعد ذلك، حسب قوله. عندما قلتُ له (لكن انتو ساكنين في البيت)، رد بأنهم ليس في حاجة إليه..! ومن ثم وجد مشروع بقائي في الخرطوم، وإمكانية تنفيذ ما كنت أفكر فيه، نقطة يمكن الانطلاق منها.

حال الخرطوم وسط لعلعة الرصاص

قضيتُ الأيام التي تلت العودة إلى المنزل في حركة مضنية لتجميع بعض الحاجيات الضرورية للسكن: زير ماء، ألواح وبطاريات طاقة شمسية، بعض الأواني المنزلية، أنبوبة غاز، مروحة متحركة، أقفال للأبواب .. كان ذلك يقتضي تجوالا وحركة على امتداد خط المواصلات الوحيد المفتوح من الكلاكلة اللفة جنوب الخرطوم عبر أحياء مايو والميناء البري حتى أبوحمامة في وسط الخرطوم. في معظم الأيام كانت هذه الحركة تجري وسط أزيز المدافع ولعلعة الرصاص، أو القصف الجوي، وألسنة الدخان المتصاعدة، في أماكن ليست ببعيدة عن ذلك الخط. أحياناً أخرى كانت أصوات المدفعية والقصف تبدأ مبكراً في الصباح بحيث يؤثر الناس عدم مغادرة منازلهم أصلاً. الظاهرة الجديدة مقارنة بالأسابيع الأولى لاندلاع الحرب، كانت المعارك الليلية بالطيران الحربي، والأضواء النارية لمضادات الطائرات..

مع مرور الأيام وتتالي الجولات بين جنوب الحزام وشماله ومع عملية التعود والتلاؤم التدريجي اللازمة لمواصلة العيش والحياة داخل أوضاع الخرطوم في ظل الحرب، زالت كلياً صورة الانطباع الأول من شارع الستين النظيف نسبياً بمبانيه المتماسكة والمحتفظة بلون طلاءاتها، والتي بدا أنها كانت ضمن محاولة للدعم السريع حينها، لجذب المواطنين للعودة للخرطوم، زالت تلك لصورة لتحل محلها الصورة الحقيقية للخرطوم: صفوف متواصلة من البيوت ومن مربعات ومجمعات وأحياء سكنية خالية من البشر؛ طرق كانت تعج بحركة المرور أصبحت بلا سيارات أو ركشات؛ مئات السيارات المدمرة في أطراف الشوراع، إما مقلوبة رأساً على عقب داخل المجاري الموازية لطرق الأسفلت، أو محترقة جزئياً أو كلياً، وإذا كانت مقلوبة أو قائمة على وضعها العادي، فبأغطية أمامية وخلفية مفتوحة إن كانت موجودة أصلاً، وبقية أجزائها (مشلعة)، أي جرى تفكيكها أو تحطيمها لأخذ أجزاء منها بصورة كاملة لا تتبقى معها إلا الهياكل الحديدية.

الأعمال الصغيرة

لحق الدمار بسبب الحرب جميع أسواق مدينة الخرطوم المعروفة، ونشأت بدلاً عنها أسواق جديدة، غالبها لمواد وبضائع مسروقة. أما بالنسبة للأعمال التجارية خارج الأسواق القديمة، فلا زالت لافتات معظم المحال في مكانها: صيدلية العدناني، تبش فريش للحلويات، صالون الشارقة للحلاقة، أبو مصطفى لخدمات الميكانيكا، مخبز الخياري، بنك بازار، بقالة التنمية التعاونية، معروف للمجوهرات، الكلس للتسويق، الوليد للملابس الجاهزة، دهب للآيسكريم.. محلات تجارية متراصة جنباً إلى جنب بطول جانبي الشارع لعدة كيلومترات، لكن لم تتبق منها إلا تلك اللافتات. تحت اللافتات تمتد أيضاً لعدة كيلومترات: أبواب مكسرة ومفتوحة على مصراعيها، أرفف خالية تماماً، فيترينات زجاجية وكاوانترات محطمة، أثاثات وأسلاك محترقة أو مكومة بقاياها داخل وأمام المحلات..

بحسب بعض الدراسات يساهم قطاع أعمال الخدمات الصغيرة والأصغر بنسبة تقارب الستين في المائة من الناتج المحلي القومي[2]. دمرت الحرب في الخرطوم هذا القطاع أو ألحقت به أضراراً جسيمة، بما فيه من تجارة الجملة والتجزئة والنقل والفنادق والخدمات الغذائية والصحة والتعليم .. سيكون تحدياً كبيراً إعادة بناء هذه القطاعات، لأن تمويلها أتى إما من محافظ تمويلية لبنوك تأثرت بشدة بسبب الحرب أيضاً، أو من مدخرات مواطنين أو حصاد اغترابهم في دول الخليج، أي مصادر لا يمكن استعادتها، إلا ببرنامج تعويضات حقيقي وكفء.

حزام الفقر، مركز العاصمة الجديد؟

كانت تلك التجوالات الكثيرة لساعات طويلة، خاصة في حواري وأسواق أحياء مايو فرصة للتعرف على الناس والحياة في هذا الجزء المسمى (جنوب الحزام) من عاصمة البلاد الخرطوم. كما سبق وذكرت كانت الحياة هنا تبدو شبه عادية إذا كان المقياس هو عدد الناس في المنطقة، فلا يبدو أن أسراً كثيرة خرجت منها بسبب الحرب، ولكن، عدا ذلك، أية حياة؟ فهذه الأحياء وامتداداتها هي جزء من حزام الفقر المدقع الذي يحيط بالعاصمة المثلثة تقريباً من كل جوانبها: بيوت الطين، الأزقة الكالحة، أطفال بملابس رثة، نساء يعرضن مواد غذائية على الأرض، وزادت عليها الحرب انعدام ذلك القليل من خدمات النظافة والصحة والتعليم الذي كان متوفراً.

لم يتفضل نظام حكم المؤتمر الوطني بمنح سكان هذه الأحياء حتى الصفة والاسم المتعارف عليه لمثل أحيائهم في أنحاء العالم: الأحياء الفقيرة (slums)، أو مدن الصفيح، لأن هذه الأسماء تحمل دلالات اقتصادية أو طبقية، وتستبطن تقصيراً من جانب الحكومة في الاعتناء بمواطنيها، خاصة إذا كانت أحياؤهم لا تبعد إلا كيلومترات تعد على أصابع اليدين عن القصر الجمهوري والقيادة العامة للقوات المسلحة، المراكز الأهم للحكومات. بدلاً عن ذلك أطلق عليهم (استراتيجيو)، الحركة الإسلامية (الحزام الأسود)، لينسبوا فقرهم وأوضاعهم الاجتماعية للون بشرتهم، وبالتالي إعفاء نظام الحكم عن أية مسئولية تجاههم..

كان مذهلاً مشهد جحافل المفقرين والمفقرات، بالمعنى الحرفي لكلمة جحافل، منذ الأيام الأولى للحرب، يحملون على رؤوسهم وظهورهم وعلى الركشات وعربات الكارو والدرداقات .. كل ما تيسر حمله من الأسواق والمخازن الكبيرة، المفتوحة عنوة، من مواد غذائية وبضائع. وذلك وسط صدمة سكان وسط الخرطوم، وحنقهم، ربما لإحساس عام بأن بقية من تلك الجحافل أوامتدادات لها ستتجه إلى المنازل بعد إفراغ المخازن الكبيرة والأسواق. قليلون جداً، آنذاك، أي في أيام الحرب الأولى، أولئك الذين خطر ببالهم أو سمعتُهم يقولون إن ظروف الحرب فتحت الباب لثورة الجياع والفقراء من أطراف العاصمة، التي كان الحديث حولها، والتحذير منها يتردد في الصحف والوسائط بين حين وآخر لزمن طويل قبل الحرب، بالطبع دون أن تعيرها الحكومة أي اعتبار أو اهتمام ..

كثيرون من المثقفين والقيادات ممن كانوا يُحسبون في معسكر التقدميين المنحازين للفقراء والكادحين، أنكروا، بفعل امتيازات أو انحيازات أيديولوجية أو جهوية، أو قصور ذاتي في التفكير، الطابع الاحتجاجي المستبطن لتصرفات المواطنين الفقراء في ظل الحرب الدائرة، واتجهوا للتفريق بين الاحتجاجات ذات

---

[2] خالد صديق، مري رؤوف، مصعب أحمد، أثر الصراع الدائر في السودان على مستوى النشاط الاقتصادي وحدة الفقر، في موقع: IFPRI، على الانترنيت

الطابع المديني المنظم، كالمظاهرات، والإضرابات والاعتصامات، بل والعمل المسلح التي يدعمونها، ويرون أنها الشكل الوحيد "الأخلاقي" للاحتجاج البناء، وبين "تعبيرات الغضب العنيفة"[3] لأحزمة الفقر في ظروف الحرب الحالية -التي يرفضونها- الصادرة عن حرمان متطاول لأولئك الفقراء من المواد والسلع والبضائع التي حملوها إلى بيوتهم، وعن الغبائن التنموية والاجتماعية المتطاولة في الريف السوداني.

لا أرى ما هو حقنا الأخلاقي، نحن الذين تلقينا تعليما في مدارس وجامعات كانت توفر لنا في مراحلها خمسة وجبات في اليوم، أن نعظ بما تعلمناه في هذه المدارس أناس لم تتح لهم فرصة الوصول إلى مدرسة في حياتهم. أو أن نحاكم بقيمنا، نحن الذين حصلنا على خدمات الدولة من كهرباء ومياه وعلاج، مواطنين سودانيين مثلنا محرومين من كل هذه السلع الاجتماعية.. أو أن ندين بتعكير أمننا، نحن الذين نعمنا بالأمن والسلام في بيوتنا ومواطننا، من عاشوا منذ أن وُلدوا في ظل الحروب ..!

في مناطق جنوب الحزام يبدو واضحاً التأييد الذي يلقاه الدعم السريع، ليس فقط في الأعداد الكبيرة للمسلحين من أبناء المكان الذين يرتدون زيه، وإنما أيضاً في الشعارات المكتوبة بخطوط عريضة على الجدران الخارجية للمنازل، وفي مشاعر الفرح التي تبدو على مرتادي مقاهي (ستات الشاي) في أسواق مايو وشوارعها الرئيسية، عندما يجتاح الدعم السريع مدينة أو منطقة جديدة، وفي كثير من الأحيان من مكبرات الصوت في الأزقة الداخلية والأسواق، التي تبث أغاني تمجد الدعم السريع وقادته.

عند مقارنة حجم الخدمات المتوفرة، الخدمات الطبية، مثلاً، أو الجهد الذي تبذله فرق خدمات نظمها الدعم السريع، كمثال، في مجال إعادة التيار الكهربائي والمياه للأحياء جنوب الحزام، يمكن القول بأن مركز الخرطوم قد انتقل في فترة الحرب من شمال الحزام إلى جنوبه.

شمال الحزام

الوصف المنتشر في الوسائط للخرطوم، والمقصود بها المنطقة شمال شارع الشاحنات، الذي يفصل شمال الخرطوم عن جنوبها، أنها صارت مدينة أشباح، خالية من البشر، تتجول فيها القطط والكلاب الضالة. هذا صحيح في بعض جوانبه، وينطبق على وجه الخصوص على الأحياء شمال شارع واحد وستين، في اتجاه العمارات، وشمال شارع أحمد خير في أحياء نمرة 3، ونمرة 2. أما المنطقة شمال شارع الطابية أو شارع الجيش، فهي منطقة عسكرية، محظورة تماماً. وقد تطلب مجرد الخروج منها عدة أيام أو أسابيع لمن داهمتهم الحرب فيها، أيامها الأولى.

عمال نهب في الخرطوم عين

حيثما تواجد مواطنون بين شارع أحمد خير وحتى شارع الشاحنات: أحياء الامتداد، والعشرة، وأجزاء من الصحافة ظلط، والصحافة شرق، وأركويت .. فلا يتجاوزون ال 15 إلى 25% من عددهم قبل الحرب. أكثر

[3] - انتونيو نيجري و مايكل هارت، إعلان، ترجمة عمار جمال (الخرطوم، مشروع الفكر الديمقراطي، 2020)، ص 24 - 25

الباقين في الخرطوم من كبار السن والمرضى، ومن لا تسمح أوضاعهم المالية بالسفر وتحمل قيمة الإيجارات المرتفعة في الأقاليم. بعض المواطنين آثروا منذ البداية البقاء في بيوتهم لحمايتها من اللصوص. واضطر للبقاء مع أسرهم العالقة في الخرطوم كثير من أبناء وبنات هذه الاسر من الشباب.

من الممكن اعتبار الشباب العالقين في الخرطوم من أكثر الفئات تضرراً بالحرب الدائرة. فقد أغلقت كل المدارس والجامعات في اليوم الأول لاندلاع الحرب، وتوقفت كل المؤسسات والمصالح الخاصة والعامة لمن كان يعمل منهم. وبنفس القدر المحلات التجارية وصوالين الحلاقة والمقاهي والمطاعم، التي أتاحت مجالا للعمل لكثيرين من الشباب. لا توجد فرص لممارسة الرياضة، فالدانات والشظايا تتساقط في كل الأوقات، وكثير من الميادين تحولت إلى مقابر، خاصة إذا كانت قريبة من (المقدمة)، مقدمة جبهات القتال، وحتى في حالة توفر الميادين، فعادة لا يوجد عدد كافي من الشباب حولها لبناء أتيام رياضية. كذلك لا توجد أي وسائل ترفيه، وطبعاً تفاقم الوضع كثيراً بعد قطع شبكة الاتصالات عن الخرطوم منذ شهر فبراير.

أما المشكلة الأكبر التي تواجه الشباب فهي العداء الشديد الذي يواجههم به مسلحو الدعم السريع من الشباب أيضاً، سواء أولئك الذين يتجولون داخل الأحياء، أو من يرتكزون في الشوارع وفي التقاطعات. فما يمر بهم أو يصادفهم شاب، إلا وتحرشوا به، أو احتجزوه أو سلبوه هاتفه ونقوده. الاتهام الدائم للشباب من قبل مسلحي الدعم السريع، أنهم يعملون لاستخبارات الجيش، أو يرسلون لهم الإحداثيات بهواتفهم. هذا الاتهام الأخير متكرر حتى في الأوقات التي انقطعت فيها الاتصالات كلياً في الخرطوم. لا يستطيع الشبان حتى تحقيق الهدف الذي بقوا بسببه في الخرطوم، وهو قضاء احتياجات أسرهم.

عادة يتجمع شباب المربع العالقين، الذين لا يتجاوز عددهم في الغالب خمسة إلى سبعة، داخل واحد من البيوت أو أمامه. في المرات التي ترددت فيها على مثل هذه التجمعات كان الحديث قليلاً، البعض كان يمسك بمسابح، ولا يتداخل إلا نادراً. وكان مدار الحديث في الغالب أخبار الحرب والمعارك، من مصادر شفهية أو من تقديرات بناءً على الاتجاهات التي جاءت منها أصوات التدوين، وعلى موقف المتحدث من طرفي الحرب. كذلك يدور الحديث حول المربعات التي توجد فيها مياه الشرب، ومتى جاءت، ومتى انقطعت، والفرن (الشغال) وغيرها من متاعب الحياة اليومية أثناء حرب... وعندما يتجه الحديث (للمشاغلات) بين البعض منهم، فيكون حول من تخاذل عن حملة قطع الأشجار لتوفير الفحم لـ(قِدرة الفول) الخيرية، ومن انهار بعض ضربة الفأس الخامسة ..! قبل أن يعود الجميع للصمت مرة أخرى، طوال نهارات لا تنتهي. قبل مغيب الشمس يعود كل إلى بيته، ليبدأ هم جديد حول الخروج من ليل طويل في ظلام دامس، دون التعرض لمخاطر لصوصه الكثيرين.. معظم من سألتهم من هؤلاء الشباب عن أحوالهم، كانوا يجيبون (غايتو، الواحد كان ما جنَ، الباقي كلو مقدور عليهو!).

لذلك، فالوصف بمدينة الأشباح لا يقتصر على خلو الأحياء من السكان، وإنما ينطبق أكثر على السكان العالقين لأي سبب في الخرطوم، حين يخرجون من منازلهم لقضاء حوائجهم الملحة: ضمور الأجساد، الوجوه يكسوها حزن وهم دفين وانكسار، جراء الرعب والترويع المتواصل من أخبار الموت لمعارف في النواحي، إما بالدانات والقصف، أو من اعتداءات بغرض النهب، ومن أصوات المدافع الغريبة والرصاص؛ ومن ألسنة الدخان التي ترتفع عقب أصوات المدافع أو القصف الجوي من الحي أو الشارع المجاور؛ ومن شظايا الدانات وعلب الذخائر الفارغة المتساقطة على الرؤوس، لا تدري متي تصيبيك أو تصيب دانة متفجرة منزلك أو أحداً من أسرتك؛ ومن مشاهد النساء الفقيرات من مناطق جنوب الحزام وهن يحملن على

رؤوسهن ما أستطعن أن يجمعنه ذلك اليوم من المنازل الخالية؛ ومن جماعات المسلحين المتجولين داخل الأحياء، والجاهزين دوما للتحرش بالمواطنين..

النهب إفقار للجميع..

جرت عمليات النهب التي وقعت على المواطنين في موجات متتالية، على الأقل أربع منها موجات عالية رئيسية، تحولت إثنان منها لتكون حالة دائمة..

الموجة الأولى كانت في الأسابيع الأربعة الأولى للحرب، وكنتُ حينها لا زلت موجودا في الخرطوم لم أغادرها بعد. استهدفت هذه الموجة بقيادة قوات الدعم السريع -في بعض الأحيان بمشاركة مواطنين- السيارات والنقود والذهب والمقتنيات الثمينة الأخرى، ودارت جل نشاطات هذه الموجة في الخرطوم في الأحياء والمنطقة شمال شارع 61 وشمال شارع أحمد خير حتى النيل الأزرق، حيث البنوك ومكاتب الشركات الكبرى والمتاجر والمكاتب التجارية وسوق الذهب والسوق الأفرنجي والعربي. وقد ظلت هذه المنطقة مقفولة تماما أمام أي حركة غير حركة الأفراد والمركبات العسكرية لقوات الدعم السريع حتي اليوم.

صاحبت هذه الموجة كسر المخازن الاستراتيجية للمواد التموينية في منطقة سباق الخيل ومنطقة السوق الشعبي الخرطوم وشملت مخازن برنامج سلعتي، وهو من برامج حكومة الفترة الانتقالية لمواجهة غلاء الأسعار ودعم الأسر الفقيرة، ومخازن للشرطة ومجمع ساريا ومخازن كثيرة أخرى للشركات وتجار الجملة في منطقة السجانة والسوق الشعبي. وطالت هذه الموجة أيضا المولات والسوبرماركتات الكبيرة في العمارات والامتداد وحي النزهة، فجرى نهب كل ما فيها من مواد وبضائع ..

وبينما تركز نهب القوات على السيارات والنقود والذهب، هجم المواطنون، غالبهم من الأحياء الفقيرة على مخازن السلع التموينية والبضائع. وتلك هي الفترة التي ذكرتُ من قبل أن جاحافل الفقراء كانت تقضي أيامها جيئة وذهابا من وإلى مناطق سكناها وهي تحمل ما أمكن حمله من مواد تموينية وبضائع ..

الموجة الثانية وقامت بها قوات الدعم السريع أيضاً، ولكن ربما قوات إسناد أتت تالية لموجة العمليات العسكرية الأولي، فاستهدفت الأجهزة الكهربائية المنقولة وأجهزة الكمبيوتر وأجهزة المطابخ وكذلك الأثاث الفاخر. في ذلك الوقت كانت أعداد كبيرة من سكان الخرطوم قد غادرتها، وتركت منازلها خالية. وحينها ظهر كتبرير للنهب من أفراد الدعم السريع، أن "من غادروا منازلهم جميعاً من الفلول وإلا لما تركوها لو كانت أموالاً حلال". هذا ما قاله لنا فرد من استخباراتهم، كما أدعى، في أول لقاء لي معهم في الارتكاز، يوم عدتُ لمنزلي..مع هذه الموجة بدأت تظهر أسواق المسروقات في مناطق عديدة من الخرطوم، خاصة حول السوق المركزي ولكن أيضاً في أبو حمامة وجنوب الخرطوم.

الموجة الثالثة اختصت بالملابس والمفروشات والأواني المنزلية. في هذه الموجة كانت الفاعلات الأساسايات في الغالب من النساء الفقيرات. لم تنقطع طوال فترة إقامتي في الخرطوم ظاهرة النساء النحيفات اللائي تكشف آثار الغبار الكثيف العالق بأرجلهن أنهن قطعن مسافات طويلة سيراً على الأقدام للوصول إلى أحياء الخرطوم الشمالية. كانت هؤلاء النساء يسرن في مجموعات، يحملن في المجئ جوالات مطوية وأكياس بلاستيك كبيرة، ليعدن بها محمولة على رؤوسهن وهي منتفخة ممتلئة حتى آخرها، بينما تمسك اليد الحرة بـ(بقجة) أخرى أو قطعة أثاث صغيرة أو موقد (منقد) للطبخ ..الخ.

في كثير من الأحيان كان يظهر فرد من الدعم السريع بكامل سلاحه يتقدم فتاة أو فتاتين يوصلهن إلى أحد المنازل أو المجمعات الخالية ويتركهن هناك. في واحدة من المرات ولأنني كنت أمام منزلي أثناء مرورهم، فلم يشأ فرد الدعم السريع، ربما إحساساً بالحرج، أن يمر دون أن يوضح المبدأ: بأن "حدودي تنتهي بمنزلي، لن يقربني فيه أحد، ولكن لا علاقة لي بما يحدث في/ أو لمنازل الجيران الخالية ..!!". هذا الشكل من التعدي صار ظاهرة مستمرة، وكان بعض أفراد الدعم السريع يقومون بحنق وتحدي مشوب بالتهديد بفتح الأبواب على مصراعيها لمنازل الجيران التي كنا نغلقها عندما تسنح الفرصة..

توزيع المواد الغذائية في الخرطوم مطبخ مساعدات الخرطوم (مواقع التواصل الاجتماعي

أما الموجة الرابعة فاستهدفت قطع الأثاث المنزلية الكبيرة المتبقية من الموجات السابقة وأي مواد بناء يمكن أن تكون موجودة في المنازل أو أمامها، بل وأحيانا الأبواب والنوافذ، يحملها صبية على عربات الكارو، وبصورة متزايدة ركشات بلا أسقف تجوب الأزقة الداخلية للأحياء ليلا بلا أضواء. طالت هذه الموجة الأخيرة المستمرة حتى المنازل المسكونة التي لم يغادرها أصحابها، وكانت هذه قد نجت حتى ذلك الوقت من النهب، واستهدفت ألواح وأجهزة الطاقة الشمسية في هذه المنازل على وجه الخصوص.

النساء من يحملن عبء الحرب

بسبب مخاطر التحرش والاحتجاز والسرقة التي يمكن أن يتعرض لها الرجال وبخاصة الشباب خارج منازلهم، فقد صارت نساء منتصف العمر هن اللاتي يقمن في الغالب الأعم بإحضار احتياجات الأسر من الخارج، بدءً بالخبز من الأفران إضافة إلى احتياجات الغذاء والحياة الأخرى، من الأسواق حولها. فبسبب التخريب والدمار الذي تعرضت له أسواق الأحياء والأسواق المركزية، سواء نتيجة للسرقات أو القصف الجوي، نشأت أسواق مصغرة حول أفران الخبز. حيث يعرض باعة متجولون، بعضهم إثيوبيون، بدرداقات، أو عربات كارو تجرها الحمير، الخضروات، ومواد غذائية كالعدس والأرز والسكر، وعبوات لبن البودرة (غالباً منتهية الصلاحية منذ شهور)، والصابون الكبريت والزيوت (بعضها انتهت صلاحيته أيضاً).. وقليل غيرها من الاحتياجات الضرورية الأخرى كحجارة البطاريات..

النساء، بعضهن كنَ معلمات أو موظفات، هن في الغالب من يتكفلن أيضاً بجلب الماء، ومن المعتاد أن تجد امرأة تدفع درداقة بها حافظات مياه، أو تحمل جردل ماء على كتفها. أحيانا تتجمع النساء بأوانيهن حول مكان يتوفر فيه الماء حتى ساعات متأخرة من الليل. في كثير من الحالات تكون النساء هن من يتحدثن مع جنود الارتكازات وقادتها، للشكوى أو طلباً للمساعدة، على سبيل المثال لنقل مريض إلى مستشفى بعيد، أو لإطلاق سراح ابن لهن يحتجزه ارتكاز ما، تعينهن في ذلك خبراتهن كأمهات ربين أبناء في أعمار من يتحدثن إليهم من أفراد الدعم السريع.

نقص الغذاء الحاد طابع المعيشة العام

تبدأ أيام الحرب الكئيبة بالنساء والرجال كبار السن وهم يحملون أوانيهم في الصباح الباكر ليلحقوا بها مكاناً متقدماً في الصف الطويل لـ(قدرة الفول) الخيرية المجانية. في حيّنا كان العدد يصل إلى حوالي 120 إلى 140، من الأواني في الصف. يبقى البعض في الظلال القريبة المتاحة حتى حوالي التاسعة حين يبدأ التوزيع. آخرون يتجهون للبحث عن الرغيف والمخبز الذي لا زال يعمل ذلك اليوم. إشكالات المخابز متكررة، بدءً من عدم توفر الدقيق، أو حطب الوقود، أو الماء للعجنة أو الديزل لتحريك موتور الخلاطة، وهكذا دواليك. خلال الأشهر الستة التي كنت فيه في الخرطوم زادت أسعار الخبز من عشرة أرغفة بحجم لا بأس به لكل 1000 جنيه، إلى خمسة أرغفة فقط من حجم أصغر، وتقول الأخبار إنها أصبحت أربعة أرغفة فقط للألف جنيه اليوم (أغسطس 2024). ولا تتوفر في الأسواق الجديدة المرتجلة حول المخابز سوى خيارات محدودة جداً من الأغذية، وذلك في غياب كامل للحوم بأنواعها والألبان والفواكه في هذه الأسواق، حيث لا تتوفر هذه، وبأسعار مرتفعة إلا في السوق المركزي وسوق لفة الكلاكلة، مما يجعلها غير متاحة، لغلاء تعريفة المواصلات بالنسبة لمعظم المواطنين شمال الحزام، ولصعوبة الحركة عبر مسافات طويلة والمخاطر المرتبطة بها، من انتشار المسلحين وتجارة الأسلحة والمخدرات في بعض منها، وذلك بعد أن وقعت مسئولية توفير احتياجات الأسرة خاصة على النساء.

لذلك صارت "المطابخ المركزية" الخيرية أو (قِدرة الفول وحلة العدس)، باسمها المحلي، التي يتولى إعدادها وتوزيع محتوياتها، تطوعاً وبلا مقابل شباب متجرد لعمل الخير ومساعدة المواطنين العالقين في الأحياء، من لجان الطوارئ أو مجموعات شبابية تطوعية أخرى- صارت على نحو متزايد المصدر الرئيسي للغذاء لأغلبية الأسر في معظم أحياء الخرطوم. في الحي الذي أقيم فيه، وبسبب تطاول أمد الحرب، ونفاد مدخرات الأسر، وتراجع التحويلات من أفراد الأسر في الخارج، ثم انقطاع شبكة الاتصالات، أصبحت هناك شكوى متكررة من الأسر، لأن هذه الخدمة الغذائية لا تتوفر يومياً، وإنما لخمسة عشر يوماً في الشهر فقط، وأنه لا يُقدم معها خبز أو مواد غذائية أخرى.

في المقابل تعاني اللجان الشبابية المشرفة على هذه المطابخ كثيراً لتوفير موارد من المغتربين من أبناء الحي لتسيير هذه الخدمة، ومن المخاطر المرتبطة بشراء المواد من أسواق بعيدة. ولكن حتى في حالات توفر المواد الأساسية، تظهر بصورة متكررة مشاكل حطب الوقود للطهي، وقد لجأ المشرفون إلى قطع أشجار النيم في الأحياء لتوفير الوقود، ولكن هذه الممارسة لها أيضاً آثار بيئية وخيمة. أحياناً تواجه عملية الطهي انقطاع المياه عن الحي, لكن المشكلة الأكبر هي تراجع المساهمات الواردة من أبناء الحي في الخارج، بسبب ازدياد مسئولياتهم وتوسعها مع تطاول أمد الحرب. وبرغم محاولاتي للمساهمة الشخصية وللمساعدة في إيجاد موارد من آخرين، إلا أن الشباب الذين تولوا العمل في المطبخ نقلوا لي في اتصال بعد خروجي، أنهم اضطروا للتوقف بعد الارتفاع الجنوني في أسعار الفول (من 200 ألف جنيه للشوال إلى 350 ألف)، والتراجع الكبير في التحويلات من الخارج..

الدعم السريع، سلطة الأمر الواقع

واضح أن الدعم السريع لا يملك خططاً معدة للتعامل مع المواطنين في مناطق سيطرته العسكرية. في الحالات التي اجتمع فيها ضباط من الدعم السريع مع مواطنين في الأحياء في محاولة لكسبهم، ودعوتهم للمساعدة في استعادة بعض الخدمات كخدمات المياه والكهرباء، كانت ردود المواطنين أن الأولوية بالنسبة لهم هي الأمن، وهو غير متوفر. إذ لم تتوقف موجات النهب للبيوت الخالية، في الغالب من أفراد مسلحين ينتمون للدعم السريع، مرات أخرى يفتعل جنود من الارتكازات مشاكل مع المواطنين الموجودين تنتهي

بسلب ممتلكات هؤلاء المواطنين، حدث ذلك في حينا لأثناء فترة وجودي. عند الاحتجاج لدى قادة الارتكازات فيتحججون عادة بأن هناك "متفلتين" وأن قانون الدعم السريع يحظر مثل تلك الممارسات، ثم يضيفون إلى ذلك أن الانشغال بتلك الأمور سيكون على حساب مواجهة "العدو" في الخطوط الامامية. أما الجنود فيتحدثون، إن صارحوا، عن الشهور العديدة التي لم يحصلوا فيها على مرتبات..!

ويتفاوت جنود الدعم السريع القادمون من الأرياف والبوادي في تعاملهم مع المواطنين، كثير من هؤلاء، خاصة الضباط، تغلب عليه صفات احترام النساء وكبار السن، وشئ من الاستقامة في التعامل مع المواطنين، ولكن يميل بعض آخر إلى إظهار أنهم من يسيطر على الأوضاع، بصور متعسفة ومبالغ فيها.

يخاطب أفراد الدعم السريع بعضهم البعض بلفظ "جاهزية" كتعريف، ويحيون بعضهم البعض، مثلاً، عند عبورهم الارتكازات بـ(يا دولة)، وعن الجيش بانه (العدو). ما تحس به في الحديث إليهم، فيما يتعلق بدوافعهم للانضمام للدعم السريع وللقتال بجانبه، برغم اختلاف خلفياتهم الجهوية على الأقل -وأنا أتحدث هنا عن قاعدة الدعم السريع، لأن دوافع قيادتهم معروفة، وهي صراعها مع آخرين حول الاستحواذ على السلطة والثروة- أن الدافع الأوضح الذي يجمع بين الجنود هو الغبائن التنموية، سواء عبر بعضهم عن ذلك بلسان المقال كلاماً، أو بلسان الحال باعتبار المناطق الريفية والرعوية أو حتى أطراف المدن، التي انحدروا منها. فيتحدث بعضهم بمشاعر صادقة، برغم أن غالبهم لم ينالوا أي قدر من التعليم بما في ذلك تعليم الأساس، عن الإهمال والعوز الذي تعاني منه مناطقهم مع ما فيها من موارد وإمكانيات اقتصادية.

بعض آخر دوافعه أمنية، بسبب صراعات محلية مع جماعات أخرى، فيتحدثون عن التهديد الوجودي الذي يستهدف مجموعاتهم القبلية أو الإثنية من جماعات أخرى، ربما يشعرون أنها أقوى منهم. ويبدو أن دافع هؤلاء هو التدرب والتسلح وربما استمالة الدعم السريع ليكون في جانبهم ساعة حاجتهم للدفاع عن مجموعاتهم.

وبالتأكيد لا تغيب الدوافع المادية الشخصية. فبرغم أن من بين من التقيت بهم من أفراد الدعم السريع كان هناك خريجين جامعيين، بل وأستاذ جامعي، إلا أن أغلبية الجنود (الذين تعرفت عليهم) لم يتلقوا أي تعليم أو لا يتعدى تعليم أفضلهم مرحلة الأساس. بعضهم يردد أنهم منذ أن فتحوا عيونهم على الحياة وجدوا حرباً مشتعلة فوق رؤوسهم. التعبير الشائع وسط (الفصيحين) منهم، أنهم تعلموا في مدرسة الحياة، وتُعتبر الخدمة في اليمن بين هؤلاء، ميزة تفضيلية ومصدراً للفخر والشعور بالأهمية. فاجتمع على تخلف مناطقهم التنموي وفقرهم الفردي، ضعف أو غياب المؤهلات الشخصية لغير حمل السلاح.. لذلك يمثل الدعم السريع لكثيرين، بل ربما للأغلبية من قاعدة المقاتلين، فرصة عمل ومصدراً للرزق، سواء بالمرتبات التي يدفعها لهم، أو بالغنائم التي يحصلون عليها بالعمليات العسكرية.

المسألة الثابتة بالنسبة لي في هذا السياق، هي أن كل من قابلته أو تحدثت إليه منهم في تجوالاتي الكثيرة أثناء فترة الإقامة، سواء في الارتكازات أو الأسواق أو حتى في مستشفيات ينقل الدعم السريع إليها مصابيه من مناطق العمليات- كانوا جميعاً سودانيين. وفي تقديري يلحق الخطاب الذي يصور الحرب الحالية بأنها مع "قوة غازية" من خارج السودان، اعتمادا على سردية "عرب الشتات"، التي روج لها منسوبو نظام الإنقاذ لتبرئة الإخوان المسلمين السودانيين من أي مسئولية عما جرى ويجري في السودان- أن هذه النظرية تكرس فقط للانقسامات المجتمعية، كما فعلت أقوال مماثلة في أحوال شبيهة في السابق.

ليلة في معتقلات الدعم السريع

لأسباب غير معروفة بالنسبة لي حتى يومنا هذا، ولكنها تذكر بأيام وممارسات جهاز أمن نظام 'الإنقاذ'، اعتقلتني قوة من الدعم السريع أواخر شهر فبراير، بعد شهر ونصف من عودتي لمنزلي، وشهرين ونصف منذ وصولي إلى الخرطوم. كان الوقت مع مغيب الشمس، وكنت في الصالة الداخلية للمنزل أقرأ، عندما سمعت أصواتاً وجلبة في الشارع، فخرجت لمعرفة مصدرها، فوجدت أمام البيت عربة قتالية مسلحة بدوشكا، عليها وحولها أفراد بكدمولات ومسلحون بكلاشينكوفات، فاجأوني لحظة خروجي بصيحات تطلب مني الصعود إلى العربة ..

طبعاً كان الأمر مفاجأة صاعقة، لأنني عدت إلى المنزل بمعرفة، بل وبتشجيع من حكمدارات الارتكاز الموجود في الحي والمجاور للمنزل، كما سردتُ سابقاً. وكل أفراد الارتكاز لا بد يعرفونني من مروري اليومي عبر ارتكازهم إلى مخبز الحي. المهم تمسكت بالعودة إلى الداخل وارتداء جلابية فوق (العراقي والسروال الطويل). بعد تكرار طلبي وسط رفض بعضهم، سمح لي واحد منهم في منتصف العمر، يبدو أنه قائدهم، على أن أحضر معي هاتفي. ثم دخل معي عدد منهم بعضهم بأسلحته الى الداخل حيث ارتديت الجلابية، وأخذت بعض الأدوية. لم يسمحوا بإقفال المنزل، بل عصبوا أعيني بعد الصعود إلى العربة، حيث وجدت عليها الشاب الذي كان يقيم معي في المنزل وهو معصوب العينين أيضاً.

فريق الاعتقال

سارت العربة بسرعة جنونية، وعندما توقفت أنزلونا معصوبي العينين، ودفعونا داخل زنزانة بلا أثاثات وجدنا بها شخصين قبلنا، وكانت صغيرة إلى الحد الذي لم يكن معه ممكناً، إلا بصعوبة، أن نمد أرجلنا كلنا في وقت واحد. بعد حوالي ساعتين فُتح الباب، ونادى حارس مسلح على (آخر اتنين) بالخروج، وقادنا إلى مكان أمام عمارة من عدة طوابق تحت التشييد، كان به عدة اشخاص يجلسون في دائرة بها كراسي وأسرة عليها نامسويات. أجلسوا الشاب الذي كان معي على الأرض وأحضروا لي كرسيا جلست عليه. وسرعان ما حضر من يبدو عليه أنه القائد، وأخذ يستجوب الشاب طالباً منه، من بين أسئلة أخرى، معرفة السبب الذي جعله يقيم معي.

بعد انتهائه من استجواب الشاب اتجه الرجل إليَ، وسألني، إن كنتُ أعرف هذا الشاب من قبل، فأجبت، أنني لم أقابله شخصياً إلا في الخرطوم قبل فترة قصيرة، ولكننا كنا نتراسل لسنين، لأنه جزء من مجموعة قراءة ضمن برنامج نديره في مشروع الفكر الديمقراطي، به مجموعات أخرى كثيرة على نطاق السودان. هنا قاطع الكلام شخصان، من ضمن الموجودين، لم أتبين وجوههما في المكان المظلم، موجهين حديثهما لمن كان يستجوبنا: بأن حديثي صحيح، وأنهما أيضاً كانا عضوان في مجموعتي قراءة في منطقتهما.. توقف الاستجواب عند ذلك الحد، ولكن بينما مُنحت أحد الأسرة لقضاء الليل، أعيد الشاب إلى الزنزانة. وفي صباح

اليوم التالي أعادني الشابان إلى منزلي، دون أن أعرف حتى اليوم سبب اعتقالي، وأفرج عن الشاب الذي كان يقيم معي بعد ثلاثة أيام أخرى..!

الناس يتمنون توقف الحرب

خلال الأيام الأولى للحرب كان المواطنون في حيِّنا يتوقعون توقفها سريعاً، في الغالب لاستدعائهم تجارب سابقة: انقلاب 19 يوليو 71‘، وحركة محمد نور سعد في 76‘ وأحداث سقوط طائرة د. جون قرنق في 2005، بعضهم اعتمد على ما قاله القادة العسكريين للجيش السوداني في الأيام الأولى للحرب.. لذلك كان المنتظر أن القوات المسلحة ستحسم الوضع سريعاً وتقضي على الدعم السريع. لم أقابل إلا شخصاً واحداً، ولكنه كان بخلفية عسكرية، قال شيئاً مختلفاً، عندما سمعني أردد ذلك الكلام أمام أحد المتاجر. تلخص حديثه في أن الطيران لا يمكن أن يحسم وحده معركة عسكرية، ولا بد من وجود مشاة، وأن الجيش ليس لديه هؤلاء المشاة..

خلال الإقامة الثانية كان واضحاً سأم من ظل موجوداً في الخرطوم أو عاد إليها من المواطنين، وحالة الرهق الشديد التي أصابتهم من تطاول أمد الحرب. وبرغم أن انقطاع شبكة الاتصالات احتكر المعلومات حول سير العمليات العسكرية لمحطات إذاعة تابعة للجيش: الإذاعة السودانية، إذاعة بلادي، وإذاعة القوات المسلحة، يستمع إليها بعض الناس من تلفوناتهم الصغيرة، إذا تمكنوا من شحنها من جار يملك جهاز طاقة شمسية، برغم ذلك فقد انحسرت كثيراً الثقة في مقدرة الجيش على حسم المعركة، بل أصبح ذلك مثاراً للتندر. وصار أمل معظم الناس معقوداً على منبر التفاوض في جدة، ولكن حتى هنا يشك كثيرون في قدرة قائد الجيش على وقف الحرب بالتفاوض، ويرون أن الإخوان المسلمين أو (الكيزان) كما يسمونهم في النقاشات، لن يسمحوا بذلك..

خطط مجهضة ومغادرة الخرطوم

انقضى الشهر الأول بعد وصولي إلى الخرطوم في محاولات تهيئة المنزل للاستقرار. في الشهر الثاني تمكنت من إخراج بعض كتب المشروع وسلسلة القراءة من أجل التغيير من المكتب، كان المكتب بطابقيه محطماً، وكانت تلك الكتب وبعض الأثاثات الكبيرة هي كل ما تبقى فيه. لم يكن من الممكن الوصول إلى مخزن الكتب في مكان آخر، فقد تحول المبنى خارجه إلى (إنداية) كبيرة تعج بالعشرات من المسلحين، ولم يكن من الحكمة الدخول عبرهم لتفقد أوضاعه.

بانتهاء الشهر الثاني توقفت شبكة الاتصالات، وكانت الحركة عبر الكباري إلى أمدرمان قد انقطعت أيضاً. بذلك لم تعد هناك وسيلة للتواصل يمكن عبرها تأسيس "منصة العالقين في الخرطوم"، الذي كنا نفكر فيه، كمنبر يعكس أحوال المواطنين هناك. اقتصر الجهد لذلك على محاولة مساعدة الشباب المشرفين على (مطبخ الحي) ما أمكن، وبعض حالات المرضى من كبار السن. بينما تواصلت محاولة تهيئة صالون المنزل كمكتبة عامة للشباب، واستكشاف إمكانية تعميم الفكرة لصوالين أخرى في الأحياء المجاورة.

مع مرور الأيام، خاصة مع دخول أشهر الحر القائظ في أبريل ومايو تزايدت يوماً بعد يوم وتيرة الضائقة الخدمية والمعيشية، وانعدام المياه لأيام .. تزايدت أيضاً حالات السطو الليلي على البيوت، مستهدفة ألواح الطاقة الشمسية القليلة الموجودة على الأسطح. في نهاية أبريل، حوالي السابعة صباحاً لاحظت توقف المروحة الصغيرة المتحركة عن الدوران، على غير العادة في هذا الوقت، لأن المعتاد أن بطاريات الطاقة الشمسية تكون قد عاودت الشحن قبل نفادها.

جاء الشاب الكهربائي الذي أشرف على تركيب جهاز الطاقة، وكان رأيه أن الرياح قد تحرك الألواح وتفصل الوصلات، وصعد إلى سطح الطابق العلوي، حيث ألواح الطاقة الشمسية، ليجد أنها قد اختفت جميعاً.

بقيت في الخرطوم بعد ذلك طوال شهر مايو، ببرنامج يومي مختلف تماماً. لم يعد من الممكن البقاء في الجزء الداخلي من البيت لا نهاراً ولا ليلاً من شدة الحر. تقلصت ساعات القراءة والكتابة نهاراً، وانعدمت ليلاً، طبعاً انهارت أيضاً مخططات المكتبات المنزلية التي تبدأ من منزلنا.

في أواخر شهر مايو، تحركت بنا من (حي مايو) جنوب الخرطوم، في رحلة لأيام عديدة، حافلة ركاب شبيهة بتلك التي تحركت بنا من (كوبري البوليس) في مدني قبل حوالي ستة أشهر، لكن باتجاه الجنوب نحو ربك، الجبلين، جودة، الرنك، هذه المرة. لتتكرر مشاهد تكاد تكون طبق الأصل لمشاهد الرحلة الأولى من مدني، لكن بصورة عكسية: من ارتكازات الدعم السريع إلى ارتكازات الجيش، مع فارق وحيد، هو أنه بعد أكثر من سنة منذ اندلاع الحرب، كان الطريق أكثر بؤساً ووحشة وخطورة.